حكايات ظرفاء العرب

بقلم: محمود سالم

أشعب



دار المعارف

أشعب

تصميم غلاف ورسوم داخلية

إسماعيل دياب

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

هل أنْتَ مُتطفِّل ؟

إذَا ذَهبْتَ إلى حَفْل بِدُون دَعْوة !

إذَا جلسْتَ إلى مائدَةٍ لَم تُدْعَ إليها !

إذَا دخلْتَ على شَخْصٍ بدُون استئذانٍ !

إذَا تحدثْتَ فى مَوضُوع ليس لَكَ دخْلٌ فيه !

فأَنْتَ – ومَعْذِرَة – مُتَطَفِّلٌ !

والتَّطَفُّلُ – ومَعْذِرَة – صِفَةٌ سَخِيفَة .. إنه ليسَ رذِيلةً ثقِيلَة

مِثل الكَذِب والسَّرِقة وَالاغْتِياب .. ولكنَّهُ رَذِيلَةٌ على كلٍّ حالٍ وإنْ كانَتْ مِنَ الْوَزْنِ الْخَفيفِ .

وستُلاحِظُ حَوْلَكَ شَخْصًا أو أكثرَ تَنْطبق عليه صِفة المتطفِّل .. وقد يُضايقُك هذا .. وقد تجده شَخصًا خَفِيفَ الدّم .. ظرِيفًا تحتَمِلُ تدخُّله أحيانًا .. وترفضه أحيانًا أخرى .. على كل حال .. فالتطفُّل ليسَ وليدَ اليوم .. وليسَ مِنَ الصِّفاتِ الَّتى ابتدعَتْها الحضَارةُ .. فَهُو صِفةٌ إنسانيَّةٌ قَدِيمة .. وقد حفَل التّارِيخُ بمئاتٍ من قصصِ المُتَطَفِّلِين . وكانَ للأدبِ العربىِّ والقصص العربىِّ نصيبٌ كبيرٌ من حكاياتِ هؤلاءِ المُتَطفِّلين .. وهؤلاء كانوا عادة من الفُقَراءِ والمتسوِّلين .. ولهذا كانَ التطفُّلُ عِندهم مِهْنَةً يُمـارسونَها حسب قَواعد وأُصُول .. وَهُم كانُوا يُمارِسُونَها مِنْ أَجْلِ الحُصولِ على غداء دَسِمٍ أو عشاء مُشْبع ..

ولعلَّك ستُلاحِظُ أنَّ هذا الكتابَ يَحْكِى قِصَصَ المُتَطفِّلِين

بُروحِ العَطْفِ عَليهم .. فقد كانَ أكثرُهُم ظُرفاءَ. أو يَدَّعُون الظَّرْف للتَّخْفِيفِ من أَثَرِ تطفُّلِهم على النَّاس ..

ولأَنهم كانُوا ظُرفاءَ أو مُتَظارِفين فقدِ احتفَظ التَّارِيخُ بِقصصِهم وحكاياتِهم ونَوادرِهم .. وهذه تَحِيَّةٌ للظَّرْفِ ولَيْسَتْ تَحِيَّة للتطَفُّلِ .. فالنَّاسُ على مَرِّ التَّاريخِ يُحِبُّونَ الظُّرَفاء .. وَيسْعَوْنَ إلى المُضْحِكِين ورُواةِ النَّوادِرِ والنّكاتِ ..

وهُناكَ مَيْزَةٌ أُخرى هَامَّة فى قِصَصِ هؤلاء المُتَطفِّلِينَ ونَوادِرِهم .. فَهذِهِ القِصَصُ تَحْكِى وتَعْكِسُ أسلوبَ الحياةِ فى العُصورِ الَّتى عاشُوا فِيها .. فَهِىَ إذَن لِلتَّرْوِيحِ والمَعْرِفَةِ فى الْوَقْتِ نفسِهِ.

وإذَا كَانَ التَّطَفُّلُ «رَذِيلَةً» فَإِنَّهُ عِنْدَ صَاحِبِهِ «فَضِيلَةٌ» .. لأَنَّهُ الوحِيدُ المُسْتَفِيدُ منه .. إِنَّهُ عادَةً لا يَعْبَأُ بِمَصِيرِ مَنْ وَقَعَ فَرِيسَةً فى طَرِيقِ تَطَفُّلِهِ. إِنَّهُ فى الغالبِ لا يَعْبَأُ إلا بِمُمارَستِهِ لِهِوايَتِهِ المُفَضَّلَةِ.

وهذِهِ الشَّخْصِيَّةُ نَرَاها دائمًا تَحرِصُ علَى أَنْ تَتَّخذَ مِنَ الْفُضُولِ وَسِيلَةً سَرِيعَةً لِنَيْلِ ما تُرِيدُهُ ، وفى أَغْلَبِ الأحيانِ لا تَزيدُ على وَجْبَةِ طَعَامٍ شَهِيَّةٍ . وجَلْسَةِ سَمَرٍ .. هذَا إذَا كَانَ مُضِيفُهُ لَمْ يَزَلْ صامدًا وصَبُورًا ..

وفى كثيرٍ مِنَ الْمَواقِفِ نَرَى صَاحِبَ هذِهِ الصِّفَةِ يَقَعُ فى مَواقِفَ حَرِجَةٍ . نَرَى أَنَّ نَتِيجَتَهَا تَزُولُ بِسُرْعَةٍ إِذَا ما تَحقَّقَ الْهَدَفُ مِنْ وَرائِها ، بَلْ أَحْيَانًا تَزيدُ صاحِبَها سَعَادَةً وسُرُورًا .

وصَدِيقُنا « أَشْعَبُ » مِن هذَا النَّوْعِ .. بَلْ يُعْتَبَرُ « كَبِيرُهم » بِحَقٍّ . فالنَّاسُ تُرَدِّدُ مُغامَراتِهِ ونَوادِرَه الَّتِى تَتَميَّزُ بالظُّرْفِ وَالذَّكاءِ .. وَيَضْحَكُونَ مِنْها .. ويَطْرَبُونَ لَها .

اسْمُهُ الحَقِيقِىُّ « شُعَيْبُ بنُ جُبَيْرٍ » ، نَشأَ بالمَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ فى الْقَرْنِ الأَوَّلِ لِلْهِجْرَةِ .. اشْتَهرَ بالظَّرْفِ وحَلاوَةِ الصَّوْتِ .. ورَشَاقَةِ الرَّقْصِ .. كَانَ طَمُوحًا ، وجَرَّهُ طُمُوحُهُ هذَا إلى الطَّمَعِ . حَتَّى لُقِّبَ « بأَشْعَبَ الطَّمّاعِ » ، كانَ مُحِبًّا للطَّعامِ

لا يشبعُ منهُ مُطْلَقًا ، عاشَ علَى مَوائِدِ الأَشْرافِ وَالْخُلَفاءِ يُسَلِّيهِم ويُضْحِكُهُم بنَوادِرِه وحُسْنِ رِوايَتِهِ . مَاتَ سنة ١٥٤ هِجْرِيَّة .. أىْ أَنه عُمِّرَ طَوِيلا بِرَغْم كُلِّ شَىءٍ .

واليومُ سَتَكُونُ رِحْلَتُنَا معَ أَمِيرِ الطُّفَيْلِيِّينَ « أَشْعَبَ » ، سَنَرْحَلُ إلى الزَّمَنِ الْبَعِيدِ الَّذِى عاشَ فِيهِ لِنَعِيشَ معًا ذِكْرَيَاتِهِ ونَوادِرَه .

* * *

كانَ « لأَشْعَبَ » صَدِيقٌ حَمِيمٌ يُدْعَى « بنَان » وهُوَ مِنْ نَفْسِ طِرازِ أَشْعَبَ .. أىْ طُفَيلىٌّ يُحِبُّ الطَّعَامَ .. لَهُمَا ذِكْرَياتٌ ونَوادِرُ كثيرةٌ عنِ الطَّعَامِ والمآزِقِ الَّتِى كانَتْ تُواجِهُهما حتَّى يتَمكَّنا مِنْ تَناوُلِ مالذَّ وطَابَ مِنْه .



رسالةٌ وَهْمِيَّةٌ

كانَ « أَشْعَبُ » وَصدِيقُهُ « بَنانُ » قَدْ تَجوَّلا كَثِيرًا فى أَنْحاءِ السُّوقِ حَتَّى أَرْهَقَهما الْجُوعُ ، فنَظَرَ « بنانُ » إلى صديقه وقَالَ :

– إِنَّنَا نَسِيرُ بِغَيْرِ هَدَفٍ .

قالَ أَشْعَبُ : صَدَقْتَ .. نَسِينا أَنْ يَكُونَ اتِّجاهُنا إلى مَوْضِعِ الطَّعامِ .

قَالَ بَنانُ :

– آه .. لَوْ عَرفنَا مَكَانَهُ .

ويَأْتِى إليهِمُ الْفَرَجُ فجأةً فى هَيْئَةِ عُرْسٍ . ولَـكِنَّ البابَ مُغْلَقٌ وعَلَيْهِ بَوَّابٌ غَلِيظُ الطَّبْعِ . وَانْصَرَفَ كُلٌّ مِنْهُما يُدَبِّرُ حِيلَةً للدُّخولِ .

انْطَلَقَ « أَشْعَبُ » يَسْأَلُ عَنْ صاحِبِ الْعُرْسِ . وَعَرَفَ أنَّ لَهُ

وَلَدًا بِالْيمنِ هو أَخُو الْعَرُوسِ . فَاطْمَأَنَّ أَشْعَبُ وضَمِنَ الْعَشَاءَ .
وفى الْحَالِ أَخَذَ وَرَقَةً وطَواهَا وكَتَبَ عَلَيْهَا « مِنَ الأَخِ إلى الْعَرُوسِ » واقْتَرَبَ مِنَ الْبَابِ فَسَأَلَهُ الْبَوَّابُ :

– مَنْ أَنْتَ .. ؟

– أَنَا رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ أَخِي الْعَرُوسِ .

فَسَمَحَ له البَوَّابُ بالدُّخولِ ، وَاسْتَقْبَلَهُ صاحِبُ الْبَيْتِ فَرِحًا قائِلاً :

– كَيْفَ حَالُ وَلَدِى ؟

– فى أَحْسَنَ حالٍ .. عَفْوًا يا سَيِّدِى لا أَسْتَطِيعُ أَنْ أُحَدِّثَكَ عَنْ وَلَدِكَ مِنْ شِدَّةِ الْجُوعِ .

وَفِى الحالِ أُحْضِرَ الطَّعامُ وقُدِّمَ لأَشْعَبَ ، وَاسْتَمَرَّ يَأْكُلُ حتَّى طَالَ الوَقْتُ .. فَسَأَلَهُ صاحِبُ الْبَيْتِ :

– هَلْ مَعَكَ رِسَالَةٌ .

– نَعَمْ ..

وأَعْطَاهُ الْوَرَقَةَ .

– لَيْسَ بِها كَلامٌ .. وهـذا لَيْسَ خطَّ وَلَدِى ؟

– إِنَّ وَلَدَكَ كانَ فى عَجَلةٍ مِنْ أَمْرِهِ .. وبالتَّالِى فَأَنا الَّذِى كَتَبْتُ اسْمَهُ حتَّى أَتمكَّنَ مِنْ دُخولِ البَيْتِ لأَمْلأَ مَعِدَتِى مِنْ هذا الطَّعامِ الشَّهِيِّ أَنا « أَشْعَبُ » الطُّفَيْلِيُّ .

فَضَحِكَ الرَّجُلُ مِنْ ذَكاءِ أَشْعَبَ وَسُرْعَةِ تَصَرُّفِهِ .

☼ ☼ ☼

كانَتْ خَسَارَةُ أَشْعَبَ لا تُحتَملُ . فَقَدْ خسِرَ مَالَهُ وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَملأَ مَعِدَتَهُ .

وهـذا ما سنَعْرِفُهُ فى النَّادِرَةِ التَّالِيَةِ :





صَيَّادٌ فى الْبَرِّيَّةِ

حَضَر « بَنانُ » يومًا إلى « أَشْعَبَ » فى بَيْتِهِ وَقَدْ جَلَسَ حَزِينًا لأَنَّهُ مُفْلِسٌ لا يَمْلِكُ قُوتَ يَوْمِهِ . وفُوجِئَ « أَشْعَبُ » أَنَّ « بنانَ » يَحْمِلُ قَوْسًا وَأَسْهُمًا وَيَجُرُّ كَلْبًا وراءَهُ . فَلَمَّا رآهُ « أَشْعَبُ » صَاحَ بِهِ :

– أَيْنَ أَنْتَ أَخْزَاكَ اللهُ ؟

رَدَّ بَنانُ :

– فى الصَّيْدِ خَيَّبكَ اللهُ .

أَشْعَبُ :

– الصَّيْد !

بَنانُ :

– نَعَمْ ، صَيْد الطُّيورِ والغِزْلانِ . إِنَّهُ عَمَلٌ أَجْدَى عَلَيْكَ

مِنْ هـذا الْقُعودِ تَنْتَظِرُ مالاً يَأْتي أَوْ لا يأْتي . قُمْ مَعي إلى الرِّزْقِ الْحَلالِ تَسْتَمتعُ بالصَّيْدِ الشَّهِيِّ . والطَّعامِ الطَّرِيِّ . وَالْهَواءِ النَّقِيِّ .

قَالَ أَشْعَبُ :

– ولـكِنْ مِنْ أَيْنَ لَكَ بِالْقَوْسِ وَالأَسْهُمِ ؟

رَدَّ بَنانُ :

– لَقَدْ بِعْتُ خاتَمي . وَاشْتَرَيْتُ كُلَّ ما ترى .

أَشْعَبُ :

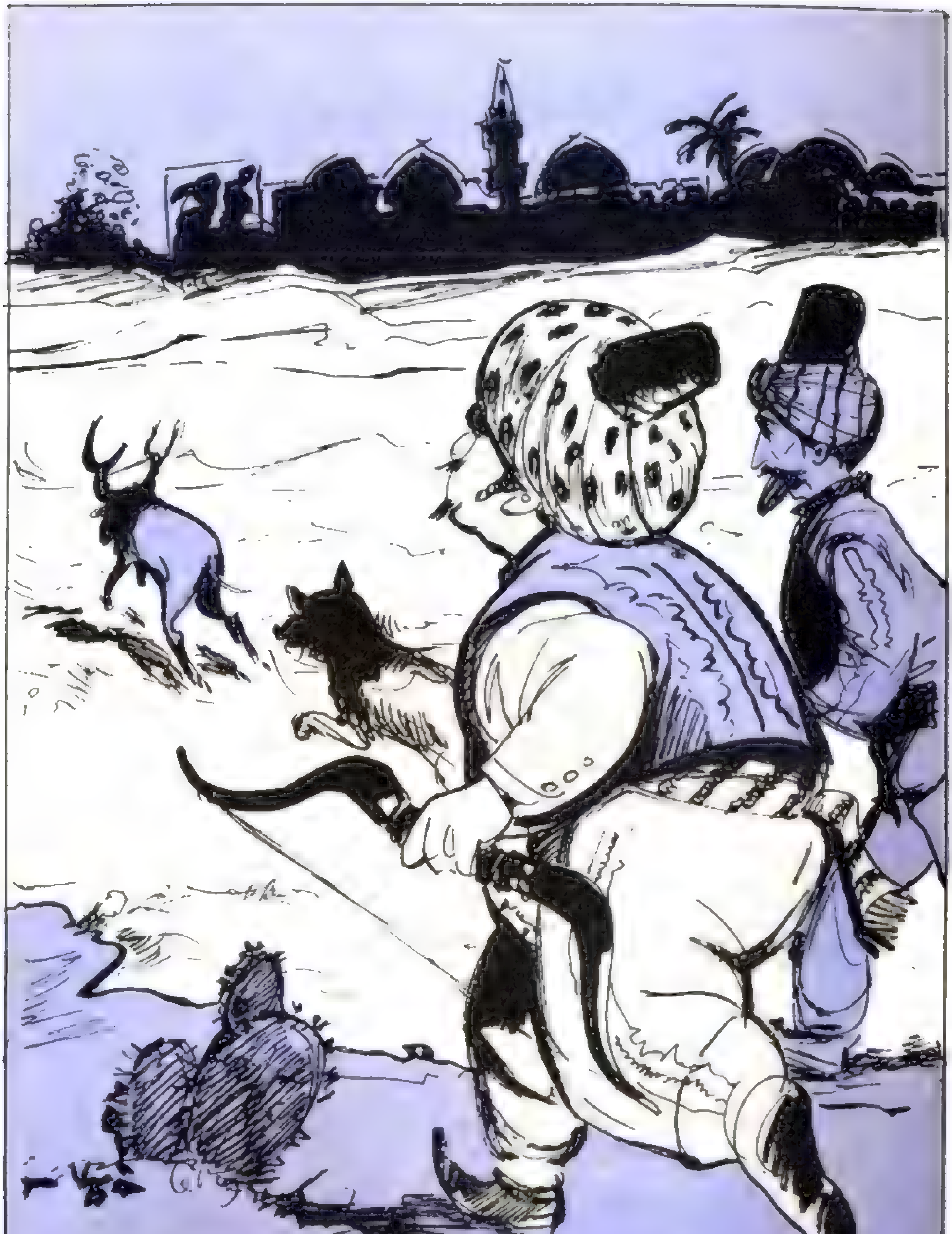
– وأَنَا ماذَا أَصْنَعُ ؟

بَنانُ :

– افعلْ مِثْلَمَا فَعَلْتُ .

أَسْرَعَ « أَشْعَبُ » يَبْحَثُ عَنْ شَيْءٍ عِنْدَهُ يَسْتَحِقُّ الْبَيْعَ حَتَّى وَجَدَ مِنْدِيلاً مِنَ الْحَرِيرِ . فَباعَهُ بِدينارٍ ..

فَقَالَ لَهُ بنانُ :



– تَعَالَ نَشْتَرِى لَكَ الْقَوْسَ وَالأَسْهُمَ !

نَظَرَ أَشْعَبُ إلى الدِّينارِ فى يدِهِ وقَالَ :

– أَنَا الآنَ فى أمانٍ مِنَ الْجُوعِ لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلاثًا أَوْ أَرْبَعًا !

بَنانُ :

– ثُمَّ تَعُودُ إلى الجُوعِ وَالْحاجَةِ إلى النَاسِ . هَيَّا بِنَا !

وَشَدَّهُ مِنْ ذِرَاعِهِ فَذَهَبا إلى بَائِعِ الأَقْوَاسِ والسِّهامِ فَاخْتَارَ لَهُ البائِعُ قَوْسًا . أَمْسَكَ بِها أَشْعَبُ فَارْتَاحَتْ نَفْسُهُ لِحَمْلِها فَقَالَ لِلْبائِعِ :

– كَمْ ثَمَنُهَا ؟

رَدَّ البائعُ :

– ثَمَنُهَا دِينَارٌ :

صَاحَ أَشْعَبُ :

– دِينَارٌ ! واللهِ لَوْ أَنِّى رَمَيْتُ بِهَا طَائِرًا فى السَّماءِ فَوَقَعَ مَشْوِيًّا بَيْنَ رَغِيفَيْنِ ما دَفَعْتُ فِيهَا دِينَارًا !

تَدخَّلَ بَنانُ فى الأَمْرِ وقَالَ لِصَاحِبه هَمْسًا :

– لَيْسَ فى السِّعْرِ غُلُوٌّ . لَقَدِ اشْتَرَيْتُ قَوْسِى هـذا بِدِينَارٍ ؟

فَدفَعَ أَشْعَبُ الثَّمَنَ وانْصَرَفَ . وَلَمْ تَمْضِ سَاعَةٌ مِنَ الزَّمَنِ حَتَّى خَرَجَا مِنَ الْمَدِينَةِ إلى الصَّحْرَاءِ . فَضَرَبَا فى الْفَلَوَاتِ وَأَوْغَلا فى الْخَلاءِ وخَلْفَهُمَا الْكَلْبُ .

مَضَى أَغْلَبُ النَّهَارِ دُونَ أَنْ يَعْثُرَا عَلَى صَيْدٍ وَأَصَابَهُمَا الْجُوعُ وَالْعَطَشُ . وأَخَذَ أَشْعَبُ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ :

– لَقَد دَفَعْتَ بِنَا إلى الْهَلاكِ . وَلَوْ بَقِينَا فى أَرْضِنَا ومَعَنَا الدِّينَارَانِ لأَكَلْنَا وَشَرِبْنَا وَسَعِدْنَا بَدَلاً مِنْ هـذا الْعَذَابِ .

وَفَجْأَةً نَبَحَ الْكَلْبُ ثُمَّ انْطَلَقَ فى إِثْرِ شَىْءٍ مَرَّ أَمَامَهُمَا كَالْبَرْق . فَنَظَرَا فَإِذَا هُو غَزَالٌ . فَأَخَذَا يَجْرِيَانِ خَلْفَ الْكَلْبِ وَالْغَزَالِ حَتَّى تَقَطَّعَتْ أَنْفَاسُهُمَا ثُمَّ وَقَفَا . وَأَعدَّ كُلٌّ مِنْهُمَا قَوْسَهُ . ثُمَّ رَفَعَ بَنانُ الْقَوْسَ . وَأَطْلَقَ سَهْمَهُ فَأَخْطَأَ الْغَزَالَ ، ثُمَّ أَطْلَقَ أَشْعَبُ سَهْمَهُ فَأَصَابَ الْكَلْبَ فَقَتَلَهُ .

هَرَبَ الْغَزالُ ومَاتَ الْكَلْبُ ، فأَخَذَ أَشْعَبُ يَسُبُّ بنانَ وَيَلْعَنُهُ وهو يقُولُ :

– لَسْنَا صَيَّادَيْنِ حتَّى نَخْرُجَ لِلصَّيْدِ ، ولَوْ بَقِينَا فى الْمَدِينَةِ لمَا حَدَثَ كُلُّ هذا ، إنَّكَ لأَحْمَقُ !

فَرَدَّ بَنانُ :

– وإنَّكَ لَطَمَّاعٌ !

وَعَادَا يَجُرَّانِ أَقْدَامَهُمَا وهُما فى أَشَدِّ حَالاتِ التَّعَبِ وَالتَّعْسِ .

* * *

فى النَّادِرَةِ التَّالِيَةِ سَنَرَى أَنَّ « أَشْعَبَ » لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَنْجُوَ مِنَ الْعِقَابِ فَقَدْ خَانَتْهُ ذَاكِرَتُهُ وَذَكَاؤُهُ فَتَمَّ جَلْدُهُ ثَلاثِينَ جَلْدَةً .



وَنَسِيتُ الأخْرَى

ذَات يوم احْتَالَ « أَشْعَبُ » وَصَدِيقُهُ « بَنانُ » على تَاجِرٍ غَرِيبٍ عَنِ الْمَدِينَةِ . فَأَسْرَعَ الرَّجُلُ إلى الْوَالِى الَّذِى أَمَرَ بِحَبْسِهِما وعَرْضِهِما عَلَيْهِ فى اليومِ التَّالِى .

فَلَمَّا عُرِضَا عَلَيْهِ أَمَرَ بتَجْرِيدِهِما مِنْ ثِيَابِهِا وَضَرْبِهِا . وَأَمَرَ بِضَمِّ أَمْوالِهِما إلى بَيْتِ الْمَالِ .

وَتَحمَّلَ « أَشْعَبُ » و « بَنانُ » الضَّرْبَ ، ولـكِنَّهُما لَمْ يَتَحَمَّلا كارِثَةَ ذهابِ الْمَالِ ، فقَالَ « أَشْعَبُ » لِلْوَالِى :

– أَصْلَحَكَ اللهُ ، أَنُجَرَّدُ مِنْ ثِيابِنَا وَأَمْوالِنَا فى يَوْمٍ وَاحِدٍ ؟ .

رَدَّ الْوَالِى :

– لَقَدْ كُنْتُمَا تُجرِّدَانِ النَّاسَ مِنْ هـذا ومِنْ ذَاكَ فى ليلةٍ



واحِدَةٍ .

فَأَدْرَكَ « أَشْعَبُ » أَنْ لا حِيلَةَ لَهُ مَعَ هـذا الْوَالِى إلا بإضْحَاكِهِ . فَلَعَلَّهُ إنْ ضَحِكَ عَفَا . فَجَعَلَ يَقُصُّ عَلَيْهِ طَرِيفَ النوادِرِ . وغَرِيبَ الْقَصَصِ والْحِكَاياتِ . ولـكِنَّ الْوَالِى ظَلَّ مُتَجَهِّمًا لا يَبْتَسِمُ أَوْيَسْتَجِيبُ لِحَدِيثِ « أَشْعَبَ » .. فَأَدْرَكَ أَلاَّ فائِدَةَ فِيمَا يَفْعَلُ .

ثُمَّ رَفَعَ الْوَالِى رَأْسَهُ وقَالَ :

– لَوْ أَنَّكَ حَفِظْتَ الْحَدِيثَ كَمَا حَفِظْتَ هـذِهِ النَّوَادِرَ لكَانَ ذلِكَ أَحَبَّ إلى اللهِ وإلى النَّاسِ مِمّا تَقُولُ .

رَدَّ أَشْعَبُ :

– قَدْ فَعَلْتُ !

قَالَ الْوالِى :

– أَسْمِعْنِى ماحَفِظْتَ مِنَ الْحَدِيثِ !

تَنَحْنَحَ أَشْعَبُ ثُمَّ قَالَ :

– حَدَّثَنِى نَافِعٌ عَنِ ابْنِ عُمَرَ ، عَنِ النَّبِىِّ ﷺ قَالَ : « مَنْ كَانَ فِيهِ خَصْلَتَانِ كُتِبَ عِنْدَ اللهِ خَالِصًا مُخْلِصًا » !

قالَ الوالى :

– هـذا حَدِيثٌ حَسَنٌ ، فَمَا هَاتانِ الْخَصْلَتَانِ ؟ .

حَارَ أَشْعَبُ وَفكَّرَ لحظَاتٍ ثُمَّ قَالَ :

– نَسِىَ نَافِعٌ وَاحِدَةً !

قَالَ الوالى :

– وَالأُخْرَى ؟

رَدَّ أَشْعَبُ :

– وَالأُخْرَى نَسِيتُها أَنَا !

فَلَمْ يُجِبِ الْوَالِى ولَمْ يَرُدّ . ولـكنْ أَمَرَ بِأَنْ يُجْلَدَ « أَشْعَبُ » ثَلاثِينَ جَلْدَةً أُخْرَى .

* * *

سأُطِيعكَ هذهِ المرّة



عَلِمَ « أَشْعَبُ » بِرَحِيلِ صَدِيقِهِ « بَنانَ » إلى مَكَّةَ . فَصَمَّمَ عَلَى الذَّهابِ إليهِ مَعَ الْقَافِلَةِ . وَتَصادَفَ أَنْ أَصْبَحَ « أَشْعَبُ » ضَيْفًا على رَجُلٍ عَجُوزٍ مِنَ التُّجَّارِ . وَطَوالَ مُدَّةِ الرِّحْلَةِ والرَّجُلُ يُجَهِّزُ الطَّعَامَ بِمُفْرَدِهِ و « أَشْعَبُ » لا يَعْمَلُ شَيْئًا .

وذَاتَ يَوْمٍ مَرِضَ الرَّجُلُ فَقَالَ لِأَشْعَبَ :

– صِحَّتِي الْيَوْمَ لَيْسَتْ عَلَى ما يُرَامُ . فَقُمِ الآنَ وَاصْنَعْ لَنَا طَعَامًا .

قَالَ أَشْعَبُ :

– عفْوًا .. لا أُحْسِنُ الطَّهْيَ .

فقَامَ الرَّجُلُ وطَهَا الطَّعَامَ وقَالَ لأَشْعَبَ :

– اغْسِلِ الأَطْبَاقَ حَتَّى نَضعَ بِهَا الطَّعَامَ .

قَالَ أَشْعَبُ :

– عفْوًا .. لا أُجِيدُ الْغَسِيلَ .

فَغَسَلَ الرَّجُلُ الأَطْبَاقَ وقَالَ :

– اغْرِفْ لنَا الطَّعَامَ .

قَالَ أَشْعَبُ :

– عفْوًا .. أَخْشَى أَنْ يَنْقَلِبَ عَلَى ثِيَابِى .

فَغَرَفَ الرَّجُلُ الطَّعَامَ وقَالَ :

– قُمِ الآنَ لِتأْكُلَ .

فَنَهَضَ أَشْعَبُ على الْفَوْرِ قَائِلاً :

– إِنَّنِى فى غَايَةِ الْحَرَجِ مِنْ كَثْرَةِ خِلافِى معَكَ ، لِهـذا سَأُطِيعُكَ هـذِهِ الْمَرَّةَ .

وَتَقدَّمَ إلى الطَّعَامِ لِيأْكُلَ وهُو فى غَايَةِ النَّشَاطِ وَالسُّرْعَةِ .



شهادةُ الحمِير

وَصل « أَشْعَبُ » إلى مكَّةَ حيْثُ يَسْكُنُ صَدِيقُهُ الْعزِيزُ « بَنانُ » وَكمْ كَانَتْ دهْشته حِينَ وَجدَ صَدِيقَهُ قَدِ اغْتَنَى ، فَابْتَنَى دَارًا جَمِيلَةً يُقِيمُ فِيها الأَفْرَاحَ واللَّيالِىَ الْمِلاحَ ، ويَجْتَمِعُ فِيها النَّاسُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ .

وَاسْتَقْبَلَ « بَنانُ » صَدِيقَهُ بِالْعِنَاقِ وَالتَّرْحَابِ . وَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَعِيشَ مَعَهُ على الرَّحْبِ والسَّعَةِ . وَسَعِدَ « أَشْعَبُ » بِهذا كَثِيرًا ، فَقَدْ كَانَ مُحِبًّا لِلطَّعَامِ والشَّرَابِ . قَادِرًا على إِحْياءِ اللَّيالِى بالْغنَاءِ وَإِلْقَاءِ الطَّرَائِفِ .

وَاسْتَطَابَ « أَشْعَبُ » هذِهِ الْحَيَاةَ . فَقَدْ عَرَفَتْ يَدُهُ ثِقَلَ الدَّرَاهِمِ . وَعرفَ بَطْنُهُ حلاوَةَ الشِّبَعِ . كَمَا تَعَوَّدَ جَسَدُهُ نُعومَةَ الْحَرِيرِ .. وَبَقِىَ شَىْءٌ واحِدٌ .. أَنْ يَشْتَرِىَ حِمَارًا يَحْمِلُهُ فى

غَدَواتِهِ ورَوَحاتِهِ بَيْنَ مَكَّةَ وَعرَفاتٍ . فَذَهَبَ إلى بائعٍ للدَّوابِّ وقَالَ لَهُ :

– اطْلُبْ ما تَشَاءُ مِنَ الثَّمَنِ . ولكِنْ بِعْنى حِمَارًا يَليقُ بِى وأَلِيقُ بِهِ .

قَالَ التَّاجِرُ :

– أَتَبغى حِمَارًا عَظِيمَ الْهَيْئَةِ سَرِيعَ الْخَطْوِ؟ !

رَدَّ أَشْعَبُ :

– أَبْغى حِمَارًا لَيْسَ بِالصَّغِيرِ الْمُحْتَقَرِ ولا الْكَبِيرِ الْمُشْتَهِرِ إذَا خَلا الطَّرِيقُ تَدفَّقَ . وإِذَا اشْتَدَّ الزِّحَام تَرفَّقَ ، وإذَا أَقْلَلْتُ عَلَفَهُ صَبَرَ . وإذَا أَكْثَرْتُهُ شَكَرَ ، وإِذَا رَكِبْتُهُ هَامَ ، وإِذَا رَكِبَهُ غَيْرِى نَامَ .

فَذُهِلَ الرَّجُل وقَالَ :

– إنَّكَ تُرِيدُ إنْسَانًا فى شَكْلِ حِمَارٍ . فإذَا مَنَحَ اللهُ القَاضِىَ حِمَارًا بِعْتُكَ إِيَّاهُ ..



وَمَرَّتِ الأَيَّامُ .. و « أَشْعَبُ » يَعِيشُ مَعَ صَدِيقِهِ « بَنانَ » يَقْطَعَانِ اللَّيالِىَ فى السَّهَرِ والسَّمَرِ والأَفْرَاحِ حَتَّى الصَّبَاحَ . وشَاعَتْ فى مكَّةَ أخبارُ ذلِكَ الْمَنْزِلِ الَّذِى يَسْهَرُ فِيهِ النَّاسُ ..

فَاشْتَكَى فُضَلاءُ مَكَّةَ إلى الْوَالِى . فَأَمَرَ الوَالِى بِحَبْسِ « أَشْعَبَ » و « بَنانَ » إلى الصَّبَاحِ . ومَا إِنْ طَلَعَ النَّهَارُ حَتَّى جَلَسَ الْوَالِى فى مَجْلِسِهِ وَأَمَرَ بِأَصْحَابِ الشَّكْوَى فَحَضَرُوا .. فَقَالَ لَهُم :

– ما دَلِيلُكُم عَلَى أَنَّ النَّاسَ يَسْهَرُونَ فى هـذا الْمَنْزِلِ ؟ .

قَالُوا :

– أَصْلَحَكَ اللهُ .. الدَّلِيلُ على صِحَّةِ ما نَقُولُ أَنْ تَأْمُرَ أَصْحَابَ الْحَمِيرِ بِأَنْ يُطْلِقُوها . فإذَا اتَّجَهَتْ إلى منْزِلِ « بَنانَ » فَنَحْنُ على حَقٍّ .. وإنْ لَمْ تَقِفْ عَلَيْهِ فَنَحْنُ كَذَّابُونَ .

قَالَ الْوَالِى :

– إن هـذا دَلِيلٌ وَشَاهِدٌ عَدْلٌ .

وَأَمَرَ مِنْ ساعَتِهِ بِالْحَمِيرِ أَنْ تُطْلَقَ . فَانْطَلَقَتْ كُلُّهَا إلى مَنْزِلِ « بَنانَ » وَوَقَفَتْ هُنَاكَ تَنْهَقُ .

فَلَمَّا عَلِمَ الوَالِى بِذَلِكَ قَالَ :

- ما بَعْدَ هذا شَىْءٌ .. أَحْضِرُوهُمَا !

فَأَسْرَعَ الْحُرَّاسُ يَجُرُّونَ « أَشْعَبَ » مِنْ ثِيابِهِ . فَلمّا نَظَرَ إلى السَّوْطِ فى يَدِ السَّجَّانِ . وَأَدْرَكَ أَنَّهُ سَيُجْلَدُ نَظَرَ إِلَى الْوَالِى وَقَالَ :

- أَصْلَحَكَ اللهُ هَلْ لابُدَّ مِنْ ضَرْبِى !

رَدَّ الْوَالِى :

- نَعَمْ .. يا عَدُوَّ اللهِ !

قَالَ أَشْعَبُ :

لَسْتُ أَخْشَى أَلَمَ الضَّرْبِ . ولكنْ أخْشَى أَنْ يَشْمَتَ بِنَا أهلُ الْعِرَاقِ . الَّذِينَ سَيَقُولُونَ إنَّ أَهْلَ مَكَّةَ يُجِيزُونَ شَهَادَةَ الْحَمِيرِ !

فَضَحِكَ الْوَالِى حَتَّى اسْتَلْقَى عَلَى ظَهْرِهِ . وَأَمَرَ بِالإِفْرَاجِ عَنْهُمَا بِشَرْطِ أَنْ يَكُفَّا عَنْ هذا السَّهَرِ وإِقَامَةِ الْحفَلاتِ .

* * *



مَنْ هُوَ الْكِنْدِىُّ الْبَخِيلُ ؟

فى رَأْىِ « أَشْعَبَ » أَنَّهُ أَبْخَلُ أَهْلِ الأَرْضِ . لَمْ يَسْتَطِعْ أَىُّ سَاكِنٍ فى مَنْزِلِهِ أَوْ جَارٌ لَهُ أنْ يَطْهُوَ طَعَامًا دُونَ أَنْ يُعْطِيَهُ مِنْهُ .

دَائِمًا يَقُولُ للسَّاكِنِ أَوْ لِلْجَارِ :

« زَوْجَتِى حَامِلٌ فإذَا طَبَخْتُمْ شَيْئًا فَرُدُّوا جُوعَها وَلَوْ بِطَبَقٍ صَغِيرٍ مِمَّا تَطْهُونَهُ » .

وَبِذَلِكَ كَانَ يَضْمَنُ بِصِفَةٍ دَائِمَةٍ ما يَكْفِيهِ هُوَ وأَوْلادَهُ مِنْ طعَام . كَانَ يَقُولُ لَهُم :

« أَنْتُم أَحْسَنُ حَالاً مِنَ الأَغْنِيَاء . فَكُلُّ بَيْتٍ يَمْلِكُ نَوْعًا وَاحِدًا مِنَ الطَّعَامِ وأَنتم تَمْلِكُونَ الْكَثِيرَ » .

و « لأشْعَبَ » الْكَثِيرُ مِنَ الْمَوَاقِفِ مَعَ الْكِنْدِيِّ الْبَخِيلِ . سَنَذْكُرُ بَعْضًا مِنْهَا :





بَرَكَةُ الْبُخْلِ

كَانَ « أَشْعَبُ » لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَصْبِرَ عَلَى الطَّعَامِ ولَوْ لِفَتْرَةٍ قَصِيرَةٍ . وَاشْتَدَّ بِهِ الجُوعُ ذَاتَ يَوْمٍ . وتَصادَفَ أَنَّهُ مَرَّ أَمامَ بُسْتَانٍ مِنْ بَساتِينِ الْكِنْدِيِّ الْبَخِيلِ . وَرَأى الْكِنْدِيَّ يتَنَاوَلُ طَعَامَهُ فَسَالَ لُعَابُهُ عَلَى اللَّحْمِ وَالْبَيْضِ وَالْجُبْنِ . فَاقْتَرَبَ « أَشْعَبُ » مِنْ مَكَانِ الطَّعَامِ وَأَلْقَى عَلَى الْكِنْدِيِّ السَّلامَ .. فَرَدَّ الْكِنْدِيُّ السَّلامَ وقَالَ :

– أَهْلاً بِكَ .. تَفَضَّلْ .

وَتَوَجَّهَ أَشْعَبُ عَلَى الْفَوْرِ إِلَى الطَّعَامِ فَصَاحَ الْكِنْدِيُّ وهُوَ يَأْكُلُ :

– إلى أَيْنَ ؟ .. لا تُسْرِعْ فِى مَشْيِكَ فَالْعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ

وَعِنْدَمَا وَصَلَ أَشْعَبُ إلى الطَّعَامِ مَدَّ يَدَهُ وقَالَ :

- أَنَا مُوافِقٌ على أَنْ أَتَغَدَّى مَعَكَ .

فَحَمْلَقَ الْكِنْدِيُّ قائِلاً :

لِمَاذَا .. ؟ كَيْفَ طَمِعْتَ فى هـذا .. ؟ مَنْ أَبَاحَ لَكَ ذلك ؟

قَالَ أَشْعَبُ :

أَنْتَ رَحَّبْتَ بِى . وقُلْتَ لِى تَفَضَّلْ وأَنْتَ تَتناوَلُ طَعَامَكَ !

أَجَابَ الْكِنْدِيُّ :

- الذِى بَيْنَنَا هُوَ السَّلامُ وَرَدُّ السَّلام فَقَطْ .. أَىْ كَلامٌ بِكَلامٍ .. وَأَنْتَ تُرِيدُ أَنْ يَكُونَ كَلامٌ بِطَعَامٍ .. فَهـذَا لَيْسَ مِنَ الإِنْصَافِ .

رَدَّ أَشْعَبُ :

- رَأَيْتُكَ تَأْكُلُ وَحْدَكَ فَأَرَدْتُ أَنْ ..

فَقَاطَعَهُ الْكِنْدِيُّ :

- إِنَّنِى أَتَنَاوَلُ طَعَامِى وَحْدِى دَائِمًا .



أَشْعَبُ :

– أَرَدْتُ أَنْ أَنْفِىَ عَنْكَ صِفَةَ الْبُخْلِ .

الكِنْدِىُّ :

– بَارَكَ اللهُ لِى فى هـذا الاسْمِ فَلا يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ فُلانٌ بخِيلٌ . إلاَّ وهُوَ ذُو مالٍ وَثَرْوَةٍ . فَبَارَكَ اللهُ لِى فى مالِى وَادْعُنى بأَىِّ اسْمٍ تَشَاءُ .

* * *

ولـكنْ هَلْ يَتْرُكُ « أَشْعَبُ » الْكِنْدِىَّ فى حَالِهِ ؟ .. لا يُمْكِنُ أَنْ يَحْدُثَ هـذا .. سَنَرَاهُ يَتَحَايَلُ عَلَيْهِ فى صُورَةٍ أُخْرَى حَتَّى يَتَمَكَّنَ مِنْ تَنَاوُلِ طَعَامِهِ .





فَرْخُ اليَمامِ

« لى صَدِيقٌ يُرِيدُ سَكَنًا ، وَأَقْتَرِحُ أَنْ يَسْكُنَ فى مَنْزِلكَ عَلَى أَنْ تُطْعِمَنِى فى العَشَاءِ » .

كَانَتْ هـذِهِ حِيلَةَ « أَشْعَبَ » الْجَدِيدَةَ على الْكِنْدِىِّ حَتَّى يَتَمَكَّنَ مِنْ عَشَائِهِ ، وَلـكِنَّ الْكِنْدِىَّ رَدَّ عَلَيْهِ قَائِلاً :

– عفْوًا .. لا يُوجَدُ الْيَوْمَ عِنْدِى طَعَامٌ .

وَنَظَرَ إلى أَشْجَارِ بُستانِهِ فَرَأَى فَوْقَ شَجَرَةٍ عاليَةٍ فى طَرَفِ الْبُسْتَانِ زَوْجًا من فِرَاخِ الْيَمَامِ يُمْكِنُ ذَبْحُهُمَا ، فَفَرِحَ كَثِيرًا .

وَقَالَ لأَشْعَبَ :

– إِذَا وَجَدْنَا إِنْسَانًا يَصْعَدُ هٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَسَوْفَ تَحْصُلُ على طَعَامٍ شَهِىٍّ .. مارَأْيُكَ يا أَشْعَبُ لَوْ تَصْعَدُهَا ؟

وَرَأَى أَشْعَبُ مَدَى اِرْتِفَاعِ الشَّجَرَةِ فَصَاحَ :



- لا .. لايُمْكنُ أَنْ أَصْعَدَها .. إنَّ فيها هَلاكِى .. أُرِيدُ أَنْ أَحْيَا .

وانْصَرَفَ على الْفَورِ يائِسًا . واشْتَدَّ بهِ الْجُوعِ . ولايُوجَدُ بِالْمَدِينَة وليمةٌ ولاعُرْسٍ . فَذَهَبَ إلى أَحدِ جِيرانِهِ وطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَقُومَ بِهٰذِهِ الْمُهِمَّةِ مُقَابِلَ مَبْلَغٍ مِنَ الْمَالِ . وكَانَ ذلكَ فى حُضُورِ جمْعٍ مِنَ النَّاسِ . وصَعَدَ الرَّجُلُ الشَّجَرَةَ وَعندمَا وَصَلَ إلى العُشِّ طارَ أَحَدُ الْفرخَيْنِ ونَزَلَ وَمَعَهُ الْفَرْخُ الثَّانِى . فَأَخْرَجَ الْكنْدِىُّ لِلرَّجُل « فَلْسًا » وَأَعطَاهُ إِيَّاهُ .. فَتَعَجَّبَ الْحَاضِرُونَ مِنَ المَبْلَغِ الضئيل برغم ثَراءِ الْكِندىِّ .

فَصَاحَ الْكِنْدىُّ قَائِلاً :

- إنَّنِى لَمْ أَجمعْ هٰذا المالَ بِعُقُولِكُمْ .. فَأُوَزِعُهُ بِعُقُولِكُمْ .

فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدُ الْحَاضِرينَ أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِ .. وَنَظَرَ الْكِندىُّ إلى أَشْعَبَ وطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يُرْسِلَ فى طَلَبِ صديقِهِ السَّاكِنِ

الْجَدِيدِ .. حَتَّى يَحْتَفِلَا مَعًا بِطَعَامِ الْعَشَاءِ مَعَ صَاحِبِ الْعَظَمِةِ فَرْخِ الْيَمَامِ الصَّغِيرِ .





السَّاكِنُ الْجَدِيدُ

أَحْضَرَ « أَشْعَبُ » صَدِيقًا وَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَتَظَاهَرَ أَمَامَ الْكِنْدِيِّ بِأَنَّهُ السَّاكِنُ الْجَدِيدُ .. وأَنْ يُوافِقَ عَلى جَمِيعِ شُرُوطِهِ حَتَّى يَتَمَكَّنَا مِنَ الْعَشَاءِ . وبَعْدَ أَنْ يَتَنَاوَلا عَشَاءَهُمَا عَلَيْهِ أَنْ يَقُوم بِمُعَايَنَةِ الْمَسْكَنِ ويَتَعَلَّل بِأَيِّ الْأَسْبَابِ لِرَفْضِهِ .

وَأُعِدَّتِ الْمَائِدَةُ مُتَوَّجَةً بِالْيَمَامَةِ الْوَحِيدَةِ . فَتَنَاوَلَهَا « أَشْعَبُ » وصَدِيقُهُ وَأَبْقَوْا لِلْكِنْدِيِّ جَنَاحَهَا .. فَتَظَاهَرَ بِالْكَرَمِ وَوَضَعَهُ أَمَامَ السَّاكِنِ الْجَدِيدِ حَتَّى يَحْظَى بِرِضَاهُ . وَرَآهُمَا يَلْتَهِمَانِ الطَّعَامَ بِسُرْعَةٍ فَقَالَ لَهُمَا :

– قَالَ الْحُكَمَاءُ عَلَيْكُم بِشُرْبِ الْمَاءِ على الطَّعَامِ .. فَلَمْ يَلْتَفِتَا إِلَيْهِ . وَاشْتَدَّ بِهِ الضِّيقُ فَصَاحَ فِيهِمَا :

– تَمَهَّلا قَلِيلاً .. حَتَّى لا تَقْتُلَكُمَا التُّخَمَةُ !

أَجَابَ أَشْعَبُ وفَمَهُ مُمْتَلِئٌ :

- إِذَا كَانَ الأَجَلُ موقُوتًا فَخَيْرٌ لى أَنْ أَمُوتَ مُشْبَعًا مِنْ أَنْ أَمُوتَ جُوعًا .

وبَعْدَ انْتِهاءِ الصَّدِيقَانِ مِنَ الطَّعَامِ طَلَبَ الْكِنْدِيُّ مِنْ أَشْعَبَ أَنْ يَدْعُوَ لَهُ بَعْدَ أَنْ سَمَحَ لَهُ بِتَنَاوُلِ الطَّعَامِ .. قَالَ :

- مَنَّ اللهُ عَلَيْكَ بِصِحَّةِ الْجِسْمِ . وَسَخَاءِ الْيَدِ . وَسَعَةِ الصَّدْرِ . وكَثْرَةِ الأَكْلِ . وَنَقَاءِ الْمَعِدَةِ . ومَتَّعَكَ اللهُ بِضِرْسٍ طَحُونٍ ومَعِدَةٍ هَضُومٍ .

وخَرَجَ أَشْعَبُ بَعْدَ الدُّعَاءِ عَلَى الْفَوْرِ مِنَ الْمَنْزِلِ .. وتَرَكَ السَّاكِنَ بَيْن يَدَىِ الْكِنْدِىِّ الَّذِى قَالَ :

- هَيَّا بِنَا لِنُعَايِنَ الْمَسْكَنَ .

قَالَ السَّاكِنُ :

- الْوَقْتُ طَوِيلٌ أَمَامَنا .

وَظَلَّ يَتَحَدَّثُ إِلَى الْكِنْدِىِّ حَتَّى غَلَبَهُ النَّوْمُ فَنَام .. وَانْتَهَز

الْفُرْصَةَ وهَـرَبَ مِنْ مَنْزِلِ هـذَا الْبَخِيلِ .

وفى الصَّبَاحِ ذَهَبَ الْكِنْدىُّ إلى أَشْعَبَ يَلُومُهُ عَلَى فِعْلِ صَدِيقِهِ وَهَرَبِهِ . وَيَسْأَلُهُ عَنْ مَكَانِهِ فَقَالَ أَشْعَبُ :

– لَقَدْ تَرَكْتُهُ بَيْنَ يَدَيْكَ ، فَأَنْتَ الَّذِى تَسْأَلُ عَنْهُ ، وبِالتَّالِى لا يَحِقُّ لَكَ أَنْ تَسْأَلَنِى عَنْهُ .

وَلَمْ يَسْتَطِعِ الْكِنْدِىُّ أَنْ يَقُولَ شَيْئًا ، وَلـكِنَّهُ كَانَ شَدِيدَ الْحُزْنِ عَلَى طَعَامِهِ الَّذِى فَقَدَهُ .

* * *

لَمْ يَسْتَطِعِ الْكِنْدِىُّ أَنْ يَنْسَى خَسَارَتَهُ مَعَ « أَشْعَبَ » وَصَدِيقِهِ . وذَاتَ يَوْمٍ ضَاقَ الْحَالُ « بِأَشْعَبَ » فَلَمْ يَجِدْ أَمَامَهُ سِوَى أَنْ يَتَحَايَلَ عَلَى الكِنْدِىِّ . وَبِرَغْمِ ذَكَاءِ « أَشْعَبَ » وَدَهَائِهِ فَإِنَّهُ فَشَلَ فى تَحْقِيقِ هَدَفِهِ .

* * *



أَقْضِى لَكَ واحِدَةً

ذَهَبَ « أشْعَبُ » ذَاتَ يَوْمٍ إلى « الْكِنْدِىِّ » الْبَخِيل صَدِيقِهِ وَظَنَّ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى التَغَلُّبِ على هذا الْبُخْلِ . وَزَادَ أَمَلَهُ أَنَّ صَدِيقَهُ قَابَلَهُ بِالتِّرْحَابِ وَالْوُدِّ وَالشَّوْق حَتَّى ظَنَّ « أَشْعَبُ » أَنَّهُ سَيَحْصُلُ مِنْهُ عَلَى شَىْءٍ . وَحَدَّثَتْهُ نَفْسُهُ أَنْ يَسْتَدِينَ مِنْهُ بَعْضَ الْمَالِ . فَجَلَسَ بِجِوارِهِ يُبَادِلُهُ شَوْقًا بِشَوْقٍ . وَوُدًّا بِوُدٍّ ثُمَّ قَالَ لَهُ :

– إنَّنى فى حَاجَةٍ إلَيْكَ ؟ .

قَالَ الْكِنْدِىُّ عَلَى عَجَلٍ :

– وَأَنَا أَيْضًا فى حَاجَةٍ إلَيْكَ ؟

سَأَلَ أَشْعَبُ وَاجِمًا :

– وَمَاحَاجَتُكَ ؟

رَدَّ الْكِنْدِىُّ :

– لَسْتُ أَذْكُرُها حَتَّى تَضْمَنَ لى قَضَاءَها !

أَشْعَبُ :

– لَقَدْ ضَمِنْتُ لَكَ !

الْكِنْدِىُّ :

– حَاجَتى أَلا تَسْأَلَنى عَنْ حَاجَتِكَ !

أَشْعَبُ :

– إِنَّكَ لا تَدْرِى مَا هِىَ !

الْكِنْدِىُّ :

– بَلْ قَدْ دَرَيْتُ !

أَشْعَبُ :

– فَمَاهِىَ ؟

الْكِنْدِىُّ :

– مادَامَتْ حَاجَةً ، فَلابُدَّ أَنَّهَا سَتُكَلِّفُنى شَيْئًا !

أَشْعَبُ :

– هذا حقٌّ . وَلٰكنْ أَنْتَ صَدِيقٌ . وَالصَّدِيقُ لابُدَّ أَنْ يَتَحمَّلَ صَدِيقَهُ . وَقَدْ جِئْتُ أَسْأَلُكَ أَنْ تُسَلِّفَنِى وَتُؤَخِّرَنِى فى السَّدَادِ !

الْكِنْدِيُّ :

– هَاتَانِ حَاجَتَان !

أَشْعَبُ :

– نَعَمْ !

الْكِنْدِيُّ :

– فَإِنِّى أَقْضِى لَكَ وَاحِدَةً فَقَطْ !

قَالَ أَشْعَبُ وَقَد اِنْتَشَى قَلْبُهُ سُرُورًا :

– قَبِلْتُ وَرَضِيتُ !

الْكِنْدِيُّ :

– أَنَا أُؤَخِّرُكَ ما شِئْتَ ولا أُسَلِّفُكَ !

فَقَامَ « أَشْعَبُ » مِنْ فَوْرِهِ . وَقَدْ أَدْرَكَ أَنَّ بُخْلَ صَاحِبِهِ أَكْبَرُ مِنْ شَوْقِهِ وَوُدِّهِ وَتَرْحَابِهِ .

* * *

إِنَّ حِيَلَ « أَشْعَبَ » لا تَنْتَهِي لِيَتَمَكَّنَ مِنَ الْحُصُولِ على الطَّعَامِ .





الْحلاَلُ وَالْحَرَامُ

تَصادَفَ وجُودُ وَالِى الْمَدِينَةِ فى إِحْدَى الْوَلائِمِ الَّتى يَحْضُرُهَا « أَشْعَبُ » . وَعَرَفَهُ الْوَالِى وَلٰكِنَّ « أَشْعَبَ » كَانَ مَشْغُولاً بِمِلْءِ معِدَتِهِ بِأَشْهَى الأَصْنَافِ .. وَبَعْدَ أَنِ انْتَهَى مِنَ الطَّعَامِ طَلَبَ وَالِى الْمَدِينَةِ مِنْ صَاحِبِ الْبَيْتِ إِحْضَارَ « أَشْعَبَ » إِلَيْهِ .. وَعِنْدَمَا وَقَفَ « أَشْعَبُ » أَمَامَ الْوَالِى قَالَ لَهُ :

– هَلْ دَعَاكَ أَحَدٌ إِلى هـذه الْوَلِيمَةِ ؟

فَوَقَعَ « أَشْعَبُ » فى حَيْرَةٍ وقَالَ :

– لا .

قَالَ الْوَالِى :

– أَلا تَعْلَمُ أَنَّ مَنْ حَضَرَ وَلِيمَةً بِغَيْرِ دَعْوَةٍ دَخَلَ الْبَيْتَ سَارِقًا .. وَأَكَلَ حَرَامًا .



قَالَ أَشْعَبُ :

– لا .. وَاللهِ لَمْ آكُلْ إلاَّ حَلالاً .

نَظَرَ الْوَالِى بِدَهْشَةٍ وَقَالَ :

– كَيْفَ ذٰلِكَ يا أَشْعَبُ ؟ .

أَجَابَ :

– دَائِمًا يَقُولُ صَاحِبُ الْوَلِيمَةِ لِلْخَبَّازِ وَالطَّاهِى زِيدَا فِى كِمِّيَّةِ الْخُبْزِ وَالطَّعَامِ وَالْحَلْوَى ، قَدْ يَجِيئُنَا مَنْ نُرِيدُهُ وَمَنْ لا نُرِيدُهُ . وَأَنَا يا مَوْلاَىَ مِمَّنْ لا يُرِيدُهُم صَاحِبُ الْوَلِيمَةِ .

فَابْتَسَمَ الْوَالِى وَالْحَاضِرُونَ مِنْ حُسْنِ الْجَوَابِ وَسُرْعَتِهِ .





الصَّيْدُ الْغَبِىُّ

خَرَجَ « أَشْعَبُ » مِنَ الْمَسْجِدِ بَعْدَ أَنِ انْتَهَى مِنَ الصَّلاَةِ وشَعَرَ بِشِدَّةِ الْجُوعِ . وَفكَّرَ كَثِيرًا فى أَمْرِ طَعَامِهِ وَكَيْفِيَّةِ الْوُصُولِ إِلَيْهِ . وَفَجْأَةً مَرَّ عَلَيْهِ رَجُلٌ مِنَ الرِّيفِ يَسُوقُ حِمَارَهُ وَعَلَى وَجْهِهِ أَمَارَاتُ السَّذَاجَةِ وَالْغَبَاءِ . قَالَ أَشْعَبُ فى نَفْسِهِ :

– « ظَفِرْنَا – والْحَمْدُ للهِ – بِصَيْدٍ ثَمِينٍ » .

وَأَقْبَلَ عَلَى الرِّيفِىِّ صَائِحًا :

– أَهْلاً بِكَ يَا أَبَا زَيْدٍ .. أَيْنَ كُنْتَ ؟ لا بُدَّ أَنْ تَأْتِىَ معى إلى مَنْزِلِى ؟ .

نَظَرَ الرِّيفِىُّ مُنْدَهِشًا وَقَالَ :

– لَسْتُ بِأَبِى زَيْدٍ .. أَنَا أَبُو عُبَيْدٍ .

وَبِسُرْعَةٍ رَدَّ أَشْعَبُ :

- عفوًا يا أَبَا عُبَيْدٍ . لَعَنَ اللَّهُ الشَّيْطَانَ وَأَبْعَدَ عَنْكَ النِّسْيَانَ .. لَقَدْ طَالَ فِرَاقُنَا فَكَيْفَ حَالُ أَبِيكَ ؟ .

قَالَ الرِّيفِىُّ :

- لَقَد تُوفِّىَ مُنْذُ عَامٍ .

صَرَخَ أَشْعَبُ :

- إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ . وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إلا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ .

وَمَدَّ يَدَهُ إلى صَدْرِهِ لِيُمَزِّقَ ثَوْبَهُ مِنْ شِدَّةِ الْحُزْنِ عَلَى فَقْدِ صَدِيقه . فَقَبَضَ الرِّيفِىُّ عَلَى يَدِهِ قَائِلاً :

- بِاللهِ عَلَيْكَ لا تُمَزِّقْ ثَوْبَكَ .. إِنَّهُ قَضَاءُ اللهِ . فَتَظَاهَرَ أَشْعَبُ بِالصَّبْرِ وَالطَّاعَةِ وَقَالَ لِلرِّيفِىِّ :

- هَيَّا مَعِى إلى مَنْزِلى أَوْ إِلَى السُّوقِ كَىْ نَتَنَاوَلَ طَعَامَ الْغَداءِ .. هَيَّا فَالسُّوقُ أَقْرَبُ وَطَعَامُهُ أَشْهَى .

وَدَخَلا مَطْعَمًا كَبيرًا وَفَخْمًا . تَتَصَاعَدُ مِنْهُ رَائِحَةٌ شَهِيَّةٌ .



وَطَلَبَ أشْعَبُ مِنَ النَّادِلِ[1] الْحُضورَ وقَالَ لَهُ :

– أَحْضِرْ لأَبِى عُبَيْدٍ طَعَامًا شَهِيًّا مِنْ كُلِّ الأَنْوَاعِ التِّى عِنْدَكُم .

وَظَلاَّ يَأْكُلاَنِ حَتَّى شَبِعَا .. ثُمَّ طَلَبَ أَشْعَبُ إِحْضَارَ الْحَلْوَى فَأَكَلا مِنْها كَثِيرًا .

قَالَ أَشْعَبُ :

– ياأَبَا عُبَيْدٍ إِنَّنَا الآنَ فى حَاجَةٍ شَدِيدَةٍ إلى مَاءٍ مُثَلَّجٍ حَتَّى يُبَرِّدَ جَوْفَنَا بَعْدَ هـذهِ الأَكْلَةِ الدَّسِمَةِ اللَّذِيذَةِ .

قَالَ الرِّيفِىُّ :

– حَقًّا .. إِنَّنا فى حَاجَةٍ إِلَيْهِ الآنَ وَبِسُرْعَةٍ .

قَالَ أَشْعَبُ بِخُبْثٍ :

– سأُحْضِرُ إِلَيْكَ الْمَاءَ الْمُثَلَّجَ حَالاً .. فَلا تَبْرَحْ مَكَانَكَ

---

(١) النادل من يقوم على خدمة القوم فى الأكل والشرب (فى مكان عام)

يا أَبَا زَيْدٍ حتَّى أَحْضُرَ .

فَوَافَقَهُ الرِّيفِيُّ بِسَذَاجَةٍ ، وخَرَجَ أَشْعَبُ فَائِزًا بِمَعِدَةٍ مَمْلُوءَةٍ دُونَ أَنْ يَدْفَعَ شَيْئًا .





الْحَيَاةُ بَعْدَكُم حَرَامٌ

اتَّفَقَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ على إِخْفَاءِ طَعَامِهِمْ وشَرَابِهِمْ حَتَّى لا يَرَاهُ « أَشْعَبُ » صَاحِبُ الْمَعِدَةِ الْوَاسِعَةِ وَالسُّرْعَةِ الْهَائِلَةِ فى تَنَاوُلِ الطَّعَامِ . وَبِالتَّالِى أَصْبَحَ مِنَ الْعَسِيرِ عَلَيْهِ أَنْ يُشَاهِدَ جَمَاعَةً مِنَ النَّاسِ يَأْكُلُونَ .

وَسَارَ أَشْعَبُ فى الطَّرِيقِ لا يَمْلِكُ أَمَلاً فى الْحُصُولِ على طَعَامٍ .. وفَجْأَةً وَجَدَ جَمَاعَةً غُرَبَاءَ لا يَعْرِفُونَهُ يَأْكُلُونَ .

فَقَالَ لَهُمْ :

– سَلامٌ عَلَيْكُمْ مَعْشَرَ اللِّئَامِ .

فَرَفَعُوا إِلَيْهِ أَبْصَارَهُمْ وَقَالُوا :

– لا .. وَاللَّهِ . بَلْ كِرَامٌ .

فَجَلَسَ بَيْنَهُم وَهُوَ يَقُولُ لِنَفْسِهِ :

– « اللهُمَّ اجْعَلْهُم مِنَ الصَّادِقِينَ .. وَاجْعَلْنِى مِنَ الْكَاذِبِينَ .

وَمَدَّ يَدَهُ إلى الطَّعَامِ الَّذِى بَيْنَ أَيْدِيهِم فى سُرْعَةٍ خَاطِفَةٍ وَهُوَ يَقُولُ :

– ماذَا تَأْكُلُونَ ؟ .

فَقَالُوا فى ضِيقٍ :

– نَأْكُلُ سُمًّا .. !

فَلَمْ يَهْتَمّ أَشْعَبُ بِمَا قَالُوا وَظَلَّ يَأْكُلُ وَيَقُولُ :

– وَاللهِ يَا أَصْدِقَائى إِنَّ الْحَيَاةَ بَعْدَكُم حَرَامٌ .

فَتَعَجَّبُوا مِنْ سُرْعَةِ هـذا الرَّجُلِ فى تَنَاوُلِ الطَّعَامِ وكَلامِهِ فَقَالُوا :

– أَيُّهَا الرَّجُلُ .. هَلْ تَعْرِفُ أَحَدًا مِنّا ؟

فَأَشَارَ أَشْعَبُ بِأُصْبُعِهِ إلى الطَّعَامِ قَائِلاً :

– لا .. لَمْ أَعْرِفْ أَحَدًا مِنْكُم .. وَلٰكِنِّى عَرَفْتُ هـذا .





مشروع انتحار

وَكَما عَلِمْنا كانَ التَّطَفُّلُ على الأفْراحِ وَالْوَلائِمِ هُوَ الْمَصْدَرُ الرَّئِيسِيُّ لأَشْعَبَ وصَدِيقِهِ « بَنان » فى الحُصولِ على الطَّعَامِ والشَّرَاب .

ولَمْ تَكُنِ الْحِيلَةُ تَنْقُصُهما إنَّما الْعِلْمُ بِمَوْضعِ الوَلائِمِ والأَعْراسِ . وكانَ هذا يُسَبِّبُ لَهُما مُشكلة كَبِيرَة .. إلى أَنْ خطر على بَالِ « بَنان » يومًا خاطِرٌ فقالَ لصاحِبِه : لا يعرِفُ مكانَ الولائمِ والأعْرَاسِ غيرُ أولادِ الأَزِقَّةِ والطُّرق .. فَهُم مُنتشِرُون فى كلِّ مكانٍ . ولَهُم عِلْمٌ بأماكنِ الاحْتِفالاتِ .. ولَعَلَّ من بينِ عيالِكَ مَن يَسيرُ مَعَهُم فَأَوْصِ الأشدَّ مِنْ أَوْلادِكَ أَنْ يأتينَا بالأخْبارِ ..

وكانَ « بَنان » على حقٍّ فِيمَا قالَ ، إذْ لم يَمْضِ يومٌ حتَّى

جاءَ ابنُ « أَشْعَب » يجرى ، فأخبرهُما أنه مَرَّ بباب قَوْمٍ عِنْدَهُم وَليمةٌ ، فأَسرعَ ثَلاثتهم إلى تلكَ الدَّارِ فَدَخَلُوا .

فَإِذا بِصَاحبِ الدّارِ قد وضَعَ سُلَّمًا وَكُلَّمَا رأى شَخْصًا لا يَعْرِفُهُ قَالَ له ! ! اصْعَدْ يابُنَىَّ .. فَصَعَد « أَشْعَبُ » و « بنَان » والصَّبِىُّ فَوَجدُوا أنفسَهُم فى غُرفةٍ مَفروشَة .

وفَجْأَةً رفَع صاحِبُ الدَّارِ السُّلَّمَ .. وَوُضِعَتِ الْمَوائِدُ فى أَسْفَلِ الدَّارِ .. وَبَقِىَ « أَشْعَبُ » ومَنْ مَعَهُ فى العُلُوِّ يَنْظُرونَ فى ضِيق ، وَوَقَف « أَشْعَبُ » وقَالَ : يافِتْيَانُ .. ماصِناعتكم ؟ .

فَقَالُوا : التَّطَفُّلُ !

فَقالَ أَشْعَبُ : وإنْ ضَمِنْت لكُم أنْ تَأْكلوا .. أَتُقِرُّونَ لى بِأَنِّى أَعْلَمُكُم بالتَّطَفُّلِ .. ؟

فَقَالوا على الفَور : مُوافِقُون ..

فَقَام « أَشْعَب » لصاحِبِ الدَّارِ وضُيوفِه فأَطَلَّ عليهِم وهُم يَأكلُون فصاحَ فيه : يا صاحِبَ الدَّارِ .. فَرفعَ الرَّجُل رَأْسَه

قائلاً : مالكَ ؟ .

فقالَ أَشْعَبُ : أَيُّهُمَا أحَبّ إليك ، تَصعدُ إِلَيْنا بمثلِ ما أمَامكم من طعام نأْكلُ وننزلُ ، أَوْ أرْمِى بِنَفْسِى فَأَسْقُط على أُمِّ رَأْسِى مِنْ هذا العُلوِّ وتَكُونُ هُناكَ مُصِيبةٌ فى دَارِك ..

وبَدأَ أَشْعَبُ يجرُّ ملابِسَهُ ، وَكأَنَّهُ يستعدُّ لِيَرْمِى بنفْسِه .

فصَرخَ صاحِبُ الدَّارِ : اصْبِرْ ، وَيْلَكَ .. لا تفعَلْ !

وفعلا صَعِدَ إليهم بِجَمِيع أَنواعِ الطَّعَامِ .. فَانْقَضُّوا عليه .

وجَعل ابنُ « أشْعَب » يأْكُلُ ، ثم يَشْرَبُ جَرْعَةَ ماءٍ .. ثم يُكْمِلُ أَكلهُ .. ثم جَرْعَة ماء .. إلى أنِ انْتَهَوْا .. وعِنْدَ ذلكَ .. انْفَردَ « أَشْعَبُ » بِابْنِهِ وكَلَّمَهُ هامِسًا .

لِمَاذَا لمْ تَجْعَلْ مَكَانَ الماءِ الَّذِى شَرِبْتَهُ لَحْمًا ؟

فأَجَابَ الابْنُ على الفَوْرِ : إنَّ الماءَ يُوسِعُ مكانًا للطَّعامِ ! !

فَفكَّرَ « أَشْعَبُ » فى كلامِ ابْنِهِ لَحظَةً .. وَفجْأَةً شَدَّ أُذُنَه وقَال : وَلِمَ لَمْ تُنبهْنِى إلى ذَلِكَ مِن قَبْلُ ؟ !



فكرة

هَا هُو ذَا « أَشْعَبُ » يَسِيرُ فى السُّوقِ يَنْتَظِرُ أَنْ يُوافِيَهُ أَحَدٌ بِخَبَرِ عُرْسٍ أوْ وَلِيمَةٍ .. وبَيْنَمَا هُوَ يَسِيرُ فى طُرقاتِ السُّوقِ إذْ تَقَابَلَ بِرَجُلٍ يَصْنَعُ طَبَقًا من الخَيْزُرَانِ .. فوقَفَ « أَشْعَبُ » يُلاحِظُ الرَّجُلَ وهُوَ مُنْهَمِكٌ فى صِنَاعَةِ الطَّبَق ..

فَقَالَ لَهُ « أَشْعَبُ » : أَسْتَحْلِفُكَ باللهِ .. أنْ تُوَسِّعَهُ قليلاً .. وأنْ تَزِيدَ فيه طَوْقًا* أوْ طَوْقَيْنِ ! فرفَعَ الرَّجُلُ رَأْسَهُ فَرِحًا وسَأَلهُ : ومَا غَرَضُكَ من ذَلِكَ يا سيِّدِى .. أَتُرِيدُ أنْ تَشْتَرِيَهُ ؟ فَهَزَّ « أَشْعَبُ » رَأْسَهُ وقَالَ : لا .. وَلكِنْ رُبَّمَا اشْتَرَاهُ شَخْصٌ مّا وأَهْدَى إلَىَّ شَيْئًا فِيه ذَاتَ يَومٍ ..

---

* الطَّوْق : الشُّعْبَة و الحُزْمَة من العيدان أو الخُوص ونحوه والمراد هنا : أنْ تزيد في سعته



أُستاذُ التَّطَفُّل

مَكَثَ « أَشْعَبُ » فى دارِ أَحدِ الطُّفَيْلِيِّينَ أيّامًا طَوِيلَةً وكانَ هَذا الرَّجُلُ يَرى فى « أَشْعَبَ » شَيْخَ الطُّفَيْلِيِّينَ وأَكْثَرَهُم حِذْقًا ومَكْرًا . وكَانَ يَعْتَبِرُ نَفْسَهُ تِلْمِيذًا فى مَدْرَسَةِ الطُّفَيْلِيِّينَ ، ومعلِّمه « أَشْعَب » فكانَ دائمًا يطلبُ من « أَشْعَب » أُصُولَ التَّطَفُّلِ وكَيْفِيَّةَ الدُّخُول إلى الأعْراسِ وَالْوَلائم . إلى أنْ طَال المُقَام بأَشْعَبَ فى دارِ الرَّجُلِ حتَّى ضَاقَ بِهِ الرَّجُلُ . وضَاقَتْ زَوْجَتُهُ فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ لِزَوْجِها ذَاتَ لَيلة : إلى مَتى سَيَبْقَى ؟

رَدَّ الزَّوْجُ : كَيْفَ لَنَا أَنْ نَعْلَمَ ؟

فَقَالَتِ الْمرأَةُ : سَوْفَ أَحْتَالُ لأَعْرِفَ !

فقالَ زَوْجُها : كَيْف ؟ .

رَدَّتِ الْمَرْأَةُ : تعالَ نُثِيرُ معركة بَيننا ونَحتَكِمُ إليهِ وَسترَى .

وفِعْلاً افْتَعلا مُشَاجَرَةً وتظَاهَرا بالخُصومَةِ .. فَانْطَلَقت المَرْأةُ إلى « أَشْعَبَ » وقالَتْ لَهُ :

– بِالّذِى يُبارِكُ لكَ فى ذهابِكَ غدًا .. أَيُّنَا الظّالِمُ ؟

فردَّ أَشْعَبُ : بالَّذِى يُبارِكُ لى فى مُقامِى عِنْدَكُم شهرًا .. ما أعْلَمُ !

فَأدرَكَتِ الْمَرْأَةُ وزَوْجُهَا أَنَّ « أَشْعَبَ » يَطْمَعُ فى طُولِ المُقَامِ عِنْدَهُم .

وَاغْتَاظَ الرَّجُلُ وفكَّرَ حتَّى اهْتَدَى إلى حِيلةٍ . فقَالَ لامْرَأتِهِ : سَوْفَ أَتحدَّاهُ غدًا فى الْقَفْزِ فَأَقْفِزُ أنَا مِن عَتبةِ الدَّارِ .. فَيَقْفِزُ هُوَ خَلْفِى .. وهُنا أُغْلِق بابَ الدَّارِ ! !

وكانَ الْغَدُ .. وفى أثْنَاءِ تَبَادُلِ الرَّجُلِ و « أَشْعَب » الحدِيث سأَلَ الرَّجُلُ « أَشْعَبَ » : كَمْ ذِرَاعًا تَقْفِزُ ؟

رَدَّ أَشْعَبُ : لَسْتُ أَدْرِى ؟ .

فَقَامَ الرَّجُلُ بِسُرْعَةٍ فوَثَبَ مِن داخِلِ المنزِلِ إلى خَارِجه لِعِدَّةِ

أَذْرُعٍ . وقَالَ لأَشْعَبَ : هَيّا خَلْفِى !

فَنَهَضَ « أَشْعَبُ » ووَثَبَ .. لا إِلَى الْخَارِجِ بَلْ إِلى الدَّاخِلِ .. فغَضِبَ الرَّجُلُ .. وقَالَ لأَشْعَبَ : أَنَا وَثَبْتُ إلى خَارِجِ الدّارِ عِدَّةَ أَذْرُعٍ . وَأَنْتَ وَثَبْتَ إلى داخلِ البابِ ذِرَاعَيْنِ فقط .

فقَالَ « أَشْعَبُ » مِنْ فَوْرِه :

ذِرَاعَانِ إلى الدَّاخِلِ خَيْرٌ مِن أَرْبَعَةٍ إلى خَارِجِ الدّارِ !

* * *

وَبَعْدُ .. لَعَلَّكَ قَضَيْتَ وَقْتًا مُمْتِعًا مع « أَشْعَب » .. ومَع حِكاياتِه ونَوادِرِه .



رقم الإيداع	١٩٨٣/١٩٨٢
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧-٠٢-٠٣٥٢-١

١/٨٢/١٨٧

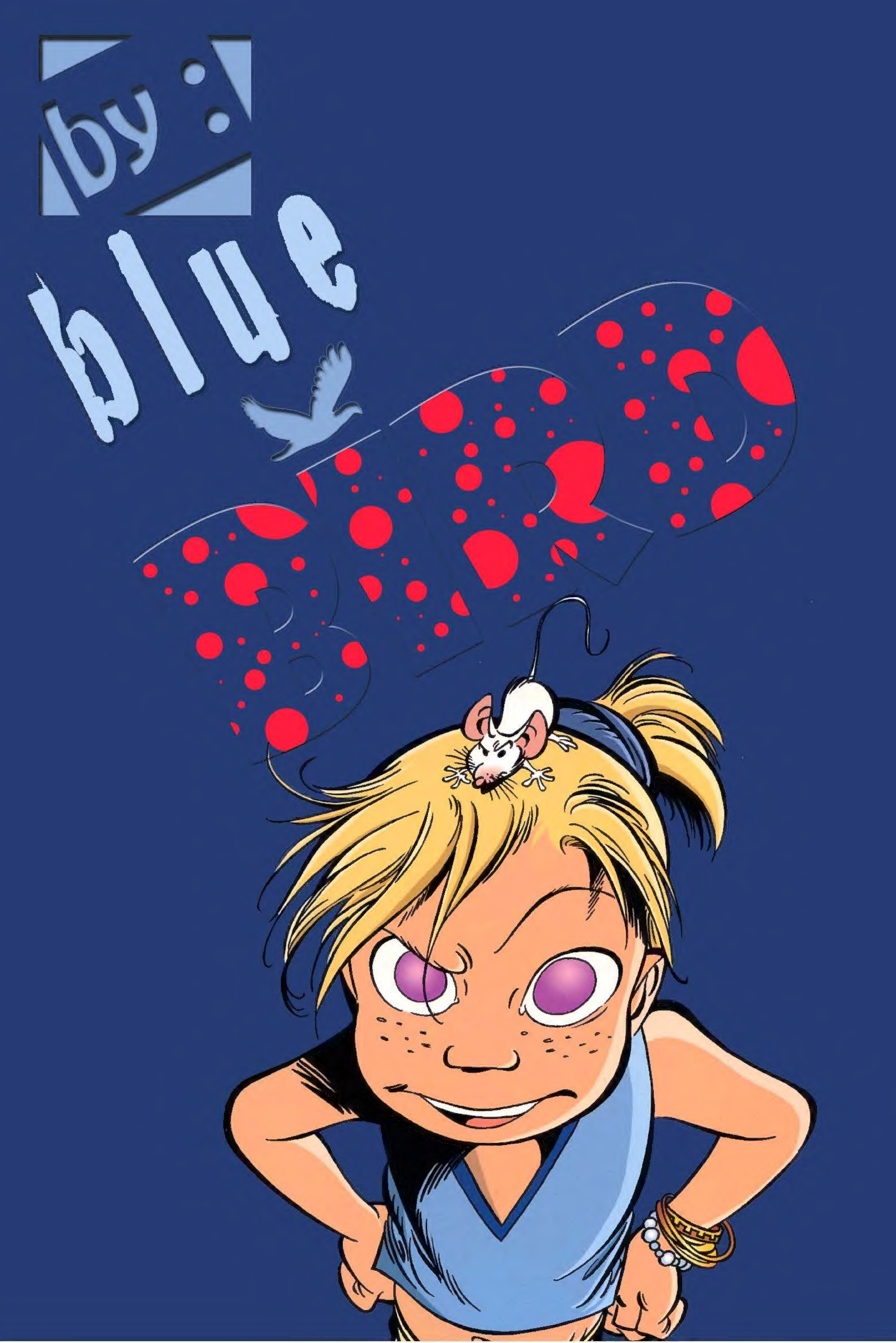
طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)



٧٠

١٠/١١٢٢٢٢




by :
blue
BIRD